بنية المجتمع في شرقي الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين (٤٨٤-٦٢٠هـ/١٠٩١-١٢٢٣م)

الباحثة/ وفاء محروس عطية نجيب

الملخص:

امتازت الأندلس بموقع جغرافي مهم، فهي حلقة الوصل بين قارتي أوروبا وأفريقيا وأصبحت مركز استقطاب لموجات بشرية مختلفة الأوطان والأديان، فضمت منذ الفتح الإسلامي بين جنباتها عناصر متعددة من السكان، ولقد أسهمت هذه العناصر في البناء الاجتماعي في شرق الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى عصر دولتي المرابطين والموحدين. وتجسدت هذه العناصر في العرب والبربر والصقالبة وأهل الذمة والنصارى واليهود والمُوَلَّدون والمسالمة.

إن هذه العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي هي أهم التركيبات العرقية التي ميزت تشكيلة المجتمع الأندلسي، وقد أعطت باختلاف أصولها وأديانها للمجتمع صفات خاصة قلما نجدها في مجتمع آخر في عصر عرف تدفق هجرات سكانية كثيفة ومستمرة مما يحتم على السلطة أن تبذل جهودًا لضبط الأمور وتحقيق الانسجام والتوفيق الذي يقتضيه الوضع خاصة وأنه يشكل خليطًا عجيبًا من الأجناس والعصبيات مما ساعد على تنوع عناصر المجتمع.

بذلك ضمّ المجتمع الأندلسي مزيجًا من العناصر البشرية والتي شكلت اللبنة الأساسة في تكوينه، فنجد فيه تمازج عرقي واضح شمل جميع المدن الأندلسية ولا سيما شرق الأندلس.

ومهما يكن من أمر فإن هذه العناصر قد أسهمت في إثراء الحركية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشرق الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، خاصة أمام التنوع المعرفي والديني الذي تحمله هذه العناصر.

الكلمات المفتاحية: بنية/ المجتمع/ دولة المرابطين/ دولة الموحدين/ العرب/ البربر/ أهل الذمة.

Abstract:

Andalusia was distinguished by an important geographical location, as it is the link between the continents of Europe and Africa and became a center of polarization for human waves of different nations and religions. These elements must be in the Arabs, the Berbers, the Saqalaba, the dhimmis, the Christians, the Jews, the Muwallads, and the Musalama.

These constituent elements of Andalusian society are the most important ethnic compositions that distinguished the formation of Andalusian society, and they gave the society, according to its different origins and religions, special characteristics that we rarely find in another society in an era that knew the flow of massive and continuous population migrations, which necessitates the authority to make efforts to control matters and achieve harmony and conciliation that The situation requires it, especially since it constitutes a strange mixture of races and sects, which helped to diversify the elements of society.

Thus, the Andalusian society included a mixture of human elements, which formed the basic building block in its formation, so we find in it a clear ethnic mixing that included all the Andalusian cities, especially eastern Andalusia.

Whatever the case, these elements have contributed to the enrichment of the social, economic and cultural movement of eastern Andalusia in the era of the Almoravids and Almohads, especially in the face of the cognitive and religious diversity that these elements bear.

بنية المجتمع في شرقي الأندلس:

تمتعت الأندلس بموقع جغرافي مهم، فهي حلقة الوصل بين قارتي أوروبا وأفريقيا وأصبحت مركز استقطاب لموجات بشرية مختلفة الأوطان والأديان، فضمت منذ الفتح الإسلامي بين جنباتها عناصر متعددة من السكان، فكان هناك قبائل العرب الذين انضافوا/ انضموا إلى المجتمع الأندلسي على فترات متباينة بعد أحداث الفتح، فتركوا لهم بصمات واضحة على مسرح الأحداث، وإلى جانب العرب هناك عناصر أخرى من الأندلسيين "مولدون ومسالمة والبربر وأهل الذمة من (اليهود والنصارى)".

ولقد أسهمت هذه العناصر في البناء الاجتماعي في شرق الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى عصر موضوع الدراسة، فتميز القرن٥هـ/١١م من الناحية الاجتماعية بانحلال العناصر التي كونت المجتمع الأندلسي بعد سقوط الخلافة الأموية فانحاز الصقالبة إلى شرق الأندلس والعرب سيطروا علي غرب الأندلس أما البربر فتجمعوا في الجنوب الشرقي من جزيرة الأندلس، وإن كان العنصران الصقلبي والمولد أكثر العناصر ظهورًا في منطقة شرق الأندلس، وظل يسيطر عليها فظهرت شخصيات تاريخية مهمة لعبت دورًا مهمًا في أحداث المنطقة في عصر المرابطين والموحدين مثل بنو هود وبنو مردنيش، ومن المفيد أن نستعرض هنا كل عنصر من هذه العناصر، ونبين الدور الذي قامت به في مجتمع شرق الأندلس عصر المرابطين والموحدين.

وتجسدت هذه العناصر فيما يلي:

أ-العرب:

لقد كان المجتمع الأندلسي-بعد الفتح-مؤلفًا من عناصر بشرية، وفي مقدمة هذه العناصر العنصر العربي الذي وفد إلى الأندلس في تيار متصل على صورة جنود فاتحين، ولعل أول جماعة عربية كبيرة دخلت إلى الأندلس جاءت في ركب القائد موسى بن نصير الذي قرر العبور سنة(٩٣ه/٧١٢م) مصطحبًا معه جيشًا جلّه من العرب، يتألف من ثمانية آلاف مقاتل (١)، وقد اختلفت المصادر في عدد جندها، لكن معظمهم من القيسية واليمنية وموالي بني أمية، استقروا في نواحي الجزيرة الخضراء واشبيلية وسرقسطة(٢).

(١) مجهول المؤلف: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها – رحمهم الله – والحروب الواقعة بينهم، تحقيق وتقديم إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط ١، القاهرة، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٤.

(٢) مؤنس، حسين: فجر الأندلس، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٤٠٠.

ويعد العرب من أوائل من دخل الأندلس إثر الفتح الإسلامي، وبقي عدد كبير منهم في الأندلس واستقروا بالحواضر الكبرى (١) بعدما وجدوا سبل الراحة من أراضي وخيرات كبيرة ويفيدنا الحميري (٢)" أن أهل شلب من عرب اليمن"، واستمرت الهجرة العربية دون انقطاع، وقد شكلت القبائل العربية أغلبية كبيرة في المجتمع الأندلسي فاستقرت القبائل العربية المضرية والقيسية في شرق الأندلس ومن أهمها تميم ومخزوم وكنانة وعرب قيس وعيلان وكلاب (٣).

ومن أهم المناطق التي نزلت بها القبائل العربية في منطقة الدراسة–شرق الأندلس–نجد بلنسية التي استقرت فيها قبيلة معافر اليمنية ومنهم بنو جحاف، حيث تمتعت بنفوذ كبير واستأثرت بخطة القضاء وامتهنوا الفلاحة والبساتين (٤)، كما سكن بلنسية بطون من القيسية أبرزهم بنو واجب وكانوا من ذوي الرأي والمشورة بها،(٥) وكذلك كان ببلنسية بعض العناصر العربية من هوزان المضرية، وبنو مفوز بشاطبة، أما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فقد نزلوا مدينة أوريولة من كورة تدمير، أما تميم فهم كثر في الأندلس (٦) وبنو هود في شرقي الأندلس، وتوزع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ومنهم بنو ميمون في جزيرة شقر (٧)، ونزلت أندة بطون من قضاعة، وكانت أندة دارهم بالأندلس(٨)، وسكن مرسية قبائل حضرموت (٩).

إن هذا التوزيع الجغرافي للقبائل العربية قد انحصر في المناطق ذات الخيرات كالأراضي وخصوبتها والأنهار والغلات ومواطن الثراء والتجارة بالنظر إلى مواقعها الاستراتيجية.

ثم إن هذه القبائل كانت تابعة لفرعين كبيرين هما: عرب المضرية وعرب اليمنية، وكان عرب شرق الأندلس أغلبه من اليمنية، منهم من سكن المدينة فاشتغلوا بالتدريس والإمامة

(١) منها طليطلة واشبيلية وبلنسية وغرناطة ووادي آشن ومدن أخرى، وكثرت أعدادهم ببلاد الأندلس (بير غيشار: "التاريخ الاجتماعي لأسبانيا المسلمة من الفتح الإسلامي إلى نهاية حكم الموحدين"، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج ٢، مراز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ص: ٩٦٧).

(٢) الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم(ت٩٠٠هـ/١٥٠٦): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠م، ص٣٤٢.

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٩٢–٢٩٣؛ بونشيش، إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ط١ بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٨، ص٤٢.

(٤) ابن حزم: المصدر السابق، ص٤١٩.

(٥) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود (ت ٥٧٨ه/ ١١٨٣م): الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة– بيروت، دار الكتاب المصري– دار الكتاب اللبناني،١٤١٠م/ ١٩٨٩م، ص٤٠٣.

(٦) المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨ هـ– ١٩٨٨ م، ج١، ص ٢٩١.

(٧) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٤٢١.

(٨) ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨/ ١٢٥٩م): التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة –لبنان، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م، ج٢، ص٨١٢.

(٩) بونشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٢.

والنساخة وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالتعليم والدين، وأما من قطن الأرياف فامتهنوا الزراعة، وكذلك نسج الحرير والكتان وبيعه، وبالإضافة إلى بيع الفواكه والعطور (١).

عرفت منطقة شرق الأندلس الفترة ما بين نهاية القرن الخامس والنصف الأول من القرن السابع تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل توقفت الهجرات العربية إلى الأندلس واكتفت البلاد بما دخلها من عناصر في هذه الموجات؟ أم النزوح العربي استمر في التدفق نحو الجزيرة لكن ليس في شكل جماعات رسمية؟.

وفي هذا الصدد يذكر القادري بوتشيش أنه لم تكن هناك هجرات عربية مشرقية نحو الأندلس باستثناء بعض العناصر القليلة من عرب بني هلال سنة(٤٩٠هـ/١٠٩٦م) (٢) للمشاركة في عمليات الجهاد بالأندلس، ولكن المصادر التاريخية المطلع عليها لم تفدنا بشيء عن هذه القبائل، فهل بقيت الأندلس مدة معينة أو أنها رجعت إلى العدوة المغربية مع الجيوش المرابطية؟.

وأمّا العرب الهلالية فلم يرد ذكرهم ببلاد الأندلس إلاّ بعد استيلاء المرابطين عليها وكانوا هم من نقلهم إلى المنطقة كجنود في جيشهم لمحاربة النصارى في الأندلس. فاشتركوا في موقعة أقليش سنة (٥٠١هـ/ ١١٠٨م) (٣).

مما عمل على جذب المزيد من العرب الذين توافدوا أيام المرابطين لتميز عصرهم بخفة حدة النعرات العصبية، فضرورة الوقوف في وجه الخطر النصراني عمل بشكل غير مباشر على تناسي الأنساب والافتخار بها، أي انتقل الشعور القومي من عصبية الجنس إلى عصبية المنشأ والأرض والمصلحة العامة، خلاف ما كان زمن الولاة والدولة الأموية.

لكن بدخول الموحدون إلى الأندلس نقلوا معهم أعدادًا كبيرة من العرب أنزلوهم في الكثير من المدن الأندلسية ففي عام(٥٥٥هـ/١١٥٩م) ترك الخليفة عبد المؤمن بن علي جماعة من العرب ضمن الجيش المجاهد الذي كان بجبل الفتح كما ذكر المؤرخ "عبد الواحد المراكشي" أنه بدخول الموحدين إلى الأندلس نقلوا معهم أعداد كبيرة من هذه القبائل، فالخليفة عبد المؤمن عندما أراد العبور إلى جزيرة الأندلس استنفر أهل المغرب عامة، وكان مما استجاب له بجمع غفير قبائل من بني هلال بن عامر"، وأنزل جماعات

(١) دندش، عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين- عصر الطوائف الثاني -(٥١٠ -٥٤٦ هـ/ ١١١٦ - ١١٥١م)، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٨٢-٣٠٤.

(٢) بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٠.

(٣) ابن القطان، أبو علي الحسن بن علي:(ت منتصف القرن السابع الهجري): نظم الجمان ترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٠.

أخرى بقرطبة وشريش واشبيلية(١) وبلنسية (٢) وسار بعده ابنه يوسف على نهجه، حيث عمل على توطين العرب الأندلس، فأنزل أعدادا كبيرة منهم بشرقه(٣)، وكان يرسل مجموعات من العرب بصفة مستمرة إلى ثغور الأندلس، وكثيرًا ما كان الخلفاء الموحدون يصرّحون برغبتهم في مشاركة ومساندة العرب الهلالية في عملية الجهاد بالمنطقة(٤).

وبرز في العصر الموحدي دور عرب بني هلال التي احتلت منزلة بين طبقات المجتمع الموحدي، وكان هؤلاء قوة فعالة في جيوش الدولة الموحدية، وقد عمل الحكام على اتباع سياسة اللين على استمالتهم بالعفو عنهم تارة وبالإغداق عليهم تارة حتى أضحى في جيش الموحدين فرقة من العرب الهلالية، كانت هذه سياسة عبد المؤمن وخلفاءه مع العرب، ليتمكنوا من السيطرة عليهم واستغلال كل طاقاتهم الحربية (٥).

غير إنه في فترة موضوع الدراسة لوحظ إن العرب قد تأثروا كثيرًا بالفتن والحروب وشكلت عمليات الغزو النصرانية للحواضر والمدن الأندلسية عاملًا آخرًا من عوامل هجرة العائلات العربية إلى الشمال أو الجنوب، وذلك خوفًا من الأسر والظلم والبطش الذي يتعرضون له على أيديهم؛ مما أدى إلى تغير أماكن استيطانهم ونزوحهم إلى المناطق المجاورة بحثًا عن الأمان، فيذكر ابن الأبار بعد تغلب النصارى على بلنسية(٦) "خرج منها مع جماعة من أهلها فرارًا بدينهم"، وخرج الكثير من مدينة المرية عند استيلاء النصارى عليها سنة(٥٤٢هـ/١١٤٨م)(٧)، وعند سقوط بلنسية وشقر وشاطبة أيام أبي محمد عبد الواحد الرشيد الموحدي، هاجر عدد كبير من الأندلسيين واستقروا بمدينة رباط الفتح (٨)؛ مما أدى إلى تغير البنية الديموغرافية للمجتمع في شرق الأندلس، والواضح أن نزوح الأندلسيين إلى المناطق الأخرى، كان بسبب سقوط المدن

(١) المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت٦٤٧هـ): المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة،١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص ٢٤٤-٢٢٦؛ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٥ م، ص٦٧٠.

(٢) البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن٦هـ/ ١٢م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوارقة، الرباط، ١٩٧١م، ص ١٣١.

(٣) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، ص٢٥١-٢٦٩؛ موسى، عز الدين عمر: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط١، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ١٩٨٣م، ص٩٧.

(٤) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٥١-٤١١.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص٣٤٨، فتحي زعروت: الجيوش الإسلامية وحركة التغير في دولتي المرابطين والموحدين المغرب والأندلس، ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر ،٢٠٠٥م، ص١١٧.

(٦) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ص٢٨٦.

(٧) بونشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٣.

(٨) عبد الله السويسي: تاريخ رباط الفتح: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، الرباط ١٩٧٩م، ص٩٣.

وتعميرها من جانب النصارى الذين وجدوا الفرصة بعد جلاء المسلمين لإعادة إعمار المدن.

ومهما يكن من أمر فإن العرب قد شكلوا عنصرًا بارزًا ومهمًا ومحوريًا في تكوين المجتمع الأندلسي لاعتبارين:

الأول: أن الفاتحين كانوا قوة بشرية هائلة عن طريق الهجرات المتتالية، حيث كانوا العنصر القائد والمسيطر على البلاد منذ الفتح، فمنذ دخولهم الأندلس قادمين من المشرق سكنوا أخصب الأراضي التي استولوا عليها، واختلطوا مع العناصر الأخرى إما بالزواج أو المعاملة مما أسهم في بناء مجتمع متعدد الأجناس.

الثاني: إمكانيات الأندلس الاقتصادية كانت حافزًا للتكسب والتجارة، ومن ثمة فإن العرب استطاعوا أن يكون نواة الأرستقراطية العربية كالرومان والقوط التي ظلت غالبة على الأندلس، فتمتعوا بالمكانة الرفيعة مع احتلالهم للمناصب العليا، وذلك من خلال ملكهم لإقطاعات كبيرة تحت إمارة الخدم والعامة (١).

وفي ضوء ما سبق فقد تميزت الأندلس في آخر القرن الخامس الهجري بانحلال العناصر التي تكون منها المجتمع الأندلسي وامتزاجها حتى أنه أصبح من الصعب التمييز بينهما وتكون من هذا الخليط ما يسمى بالأندلسيين، فالعرب الذين دام انقسامهم إلى القرن الرابع الهجري (منتصف القرن العاشر الميلادي) إلى فريقين متطاحنتين مضرية ويمنية استطاعوا أن يتخلصوا من العصبية القبلية، وشكل الأندلسيين الغالبية العظمى من سكان الأندلس في العصر الموحدي، وقد تمتعوا بالعديد من الخصال والصفات التي سمحت لهم من إثبات جدارتهم أينما حلوا، فظهر منهم الزعماء والقادة العظام والعلماء والأطباء والمهندسين، ومن هؤلاء برز أبو محمد سيداري بن وزير القيسي(٢)، في عهد الخليفة أبي يعقوب، وهو أحد أمراء الأندلس الذين ثاروا في الفتنة في أعقاب دولة المرابطين، ثم انتظم في سلك الدولة الموحدية، فكان من أكثر رجالات الأندلس رجاحة وشهامة وكان يجيد الأسبانية، فاستعمله الخليفة وإخوته من السادات في سفاراتهم لدى ملوك النصارى، وسكن في نهاية أمره مراكش حتى وفاته عام(٥٦٥هـ/١١٦٩م)(٣).

---

(١) مجهول المؤلف: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص٤٣.

(٢) هو أبو محمد سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسي، أحد الثوار الذين قاموا بالأندلس في أعقاب دولة المرابطين، ثم انتظم في سلك الدولة الموحدية وصار من خيرة رجالها، وشارك في عدة غزوات لحسابها، وكان يجيد اللغة الاسبانية، وتوفي بعد سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م بقليل. (انظر: ابن الآبار: الحلة السيراء، ط ٢، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٢٧١؛ البيذق، أخبار المهدي، ص٨٧.

(٣) ابن الآبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص٢٧١؛ البيذق، أخبار المهدي، ص٨٧.

ب–البربر:

بدأت هجرة البربر إلى الأندلس مع انطلاق عملية الفتح، وتتكون الموجة الأولى من الدفعة التي قادها طارق بن زياد، هذه الحملة سوف تقوم بالدور الرئيس في فتح الأندلس ونشر الإسلام (١).

لقد كان عدد البربر يفوق بكثير عدد العرب في هذه الحملة يمثل الفئة الغالبة وذلك لاعتبارات عدة منها: قرب العدوة المغربية من الأندلس–غنى الأندلس بالثروات والأوضاع المعيشية المستحسنة ولأسباب سياسية (٢)، وهذا ما تؤكده المصادر وعلى رأسها ابن عذارى المراكشي، الذي يقول:(٣) "وكان اجتمع لطارق اثنا عشر ألفًا من البربر"، والرأي نفسه ذهب إليه ابن خلدون، إذ يقول:(٤)" وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن من أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب وانتهب معه من البربر زهاء عشرة آلاف".

ولم تقتصر هذه الأعداد من البربر ممن شاركوا مع طارق بل توالت هجراتهم إليها واستقرارهم فيما بعد الفتح في كافة نواحي الأندلس (٥)، وخاصة المناطق الشمالية المواجهة للنصارى (٦)، فالانتصارات الأولى شجعت البربر على التدفق إلى الأندلس بغية التماس الغنائم أو الاستقرار في المناطق ذات الخيرات (٧)، وهذا ما أكده المقري، حيث يقول: (٨)" وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها فأقبلوا نحوه من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر".

إن استقرار البربر في الأندلس جاء نتيجة امتزاج تاريخي بين أربع مجموعات:

أولهما: كان مع الفتح الإسلامي للأندلس حيث انصهروا مع باقي الشرائح الاجتماعية.

الثانية: فهي تلك التي جلبها المنصور بن أبي عامر للخدمة في الجيش كما ذكر ابن عذاري (٩)"وأزل قبائل الأندلس بإجازة البربر ... واستكثر من أعدادهم ".

---

(١) بوبايه، عبد القادر: البربر في الأندلس وفتنة القرن الخامس الهجري (٩٢–٤٢٢هـ/٧١١–١٠٣١م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١م، ص ١٦

(٢) مؤنس،: فجر الأندلس، ص٤٢٠–٤٢٢

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٦

(٤) ابن خلدون: العبر، ص ٩٧٥ ،٩٧٤ وقد ذكر ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق الذي دخل الأندلس، وهي مطغرة، ومديونة، ومكناسة، وهوارة، وكلها متفرعة من زناته ثم يضيف ابن حزم قائمة بقبائل أخرى وفدت إلى الأندلس وهي مغيلة وملزوزة ونفزة، وأوربة، ومصمودة (انظر: ابن حزم، محمد علي بن سعيد(ت٤٦٥هـ): جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ص٤٩٨–٥٠١؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٩١).

(٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٤٤٣.

(٦) عبد القادر بوبايه: البربر في الأندلس، ص٥٠.

(٧) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، د.ت، بيروت، ١٩٦٩ ، ص ١٢٣.

(٨ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٥٩.

(٩) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٢٧٤.

الثالثة: بينما تمثلت هذه المجموعة من صنهاجة اللثام الذين تم استدعاؤهم لردع الخطر النصراني فأنزلوا قبائلهم المدن والثغور (١)، وإلى جانب هذه الفئات الثلاثة فئة رابعة: تألفت من بربر العدوة.

حيث إن توافد القبائل البربرية إلى الأندلس تميز بالاستمرارية والكثافة من الفتح إلى القرن الخامس الهجري وازداد بكثرة مع دخول المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، حيث شهدت الفترة الأخيرة من القرن٥هـ/١١م تدفق هجرات كثيفة للعنصر البربري، وكانت أكثرها عددًا عام(٥٣٥هـ/١١٤٠م) حتى وصف ابن عذاري تلك الهجرات (٢) "بالانجلاء العظيم إلى الأندلس"، وسبب هذه الهجرة يعود إلى انعدام الأمن وغلاء المعيشة وظهور المجاعات التي حلت بالمنطقة خاصة في أواخر عهد المرابطين ووصول الموحدين إلى المناطق الشمالية في المغرب الأقصى (٣).

والواقع أن الوجود المرابطي قد خلف نتائج جيدة لبربر الأندلس تجلت في ازدياد أعدادهم بسبب انتقالهم المتواصل للجهاد ضد النصارى، واستقرارهم في المدن والثغور، وعلى كل حال فإن هذه الجموع البربرية الجديدة أضيفت المجموع سكان البربر في الأندلس وأصبحوا يشكلوا قوة اجتماعية لا يستهان بها.

وقد سكنت تلك القبائل البربرية في العديد من المدن الأندلسية يقول ابن أبي زرع (٤)" عام(٥٨٠هـ/١١٨٤م) أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الناس بالجواز إلى العدوة الأندلسية فجازت قبائل العرب أولًا ثم قبائل زناتة ثم قبائل المصامدة ثم غمارة وصنهاجة وأوربة وأصناف البربر".

وفي ضوء ما سبق فإن هجرات هذه القبائل قد بينت الوضعية الديموغرافية الصعبة التي صارت عليها الأندلس بجواز القبائل البربرية والعربية معًا، خاصة بعد أن ترك الخليفة عبد المؤمن بن علي تلك القبائل هنالك وعاد إلى العدوة المغربية.

وفي عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف قام بتقسيم تلك القبائل وتعين مواضع مكوثها في المدن التي عرفت اضطرابًا وعدم الاستقرار خاصة الجهة الشرقية، حيث "اسكن زناتة بلنسية، واسكن صنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية، وأسكن أهل تينملل

(١) دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٩٨.

(٣) عبد المنعم حسين، حمدي: تاريخ المغرب والاندلس في عصر دولة علي بن يوسف المرابطي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ،١٩٨٦، ص١٤٦.

(٤) ابن أبي زرع، علي الفاسي (ت في منتصف القرن ٨ه/ ١٤م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٢١٣

لورقة ..."(١) ، هذا ونالت مصمودة مكانة مميزة من بين القبائل البربرية بعد قيام الدولة الموحدية، كونها من أولى القبائل التي شاركت وساندت بالمال والرجال في دعوة المهدي بن تومرت منذ بدايتها (٢)، هذا وقد تركز بربر بلنسية في أعمالها ولا سيما في شاطبة التي سكنها بنو عميرة وهم من الهاصة (ينسبون إلى نفزة) وبنو قاسم من كتامة في البونت(٣) وتولى حكمها، واستقر في مصلات جماعات من بربر هوارة، وكذلك من أقيم بلنسية أقليم مصمودة "(٤)، ومازالت أسماء مواضع بربرية متداولة في بلنسية مما يثبت أن معظم سكانها كانوا من البربر كالشأن في Alumusafes الواقعة بالقرب من شقر كما يذكر الباحث آسين أنه مشتق من لفظ مسوفه، هي قبيلة بربرية دخلت إلى الأندلس مع قبائل صنهاجة استقرت بشرق الأندلس، كذلك نزل بنو رزين بالسهلة وإليهم تنسب بلدة Albarracin المشتقة من بني رزين النفزيين(٥). ومن أهم قبائل البربر التي استقرت في سرقسطة، بنو صنهاجة، حيث استقروا بالقرب من قوس سِينْغوُ، وهي ضاحية من ضواحي سرقسطة، وأيضًا بعض من قبيلة زناتة حيث استقروا في المكان المسمى (عقبة مليلة) (٦).

وبذلك اتبع الخلفاء الموحدون سياسة توطين القبائل البربرية ببعض الحواضر الأندلسية، فيوسف بن عبد المؤمن ترك في "المشرق– شرق الأندلس– من آل قبيل، فأسكن زناتة والعرب ببلنسية، وأسكن صنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية، وفي لورقة أنزل أهل تينمل، وفي المرية أسكن برشانة وآومية"، وفي عام(٥٧٠هـ/١١٧٤م) استعاد الموحدون مدينة باجة من أيدي النصارى وأعادوا إليها أهلها، وأسكنوا معهم جماعة من الموحدين(٧)، وفي عام(٦١٦هـ/١٢١٤م) أرسلت مجموعة من قبائل آومية إلى الأندلس لتعزز بذلك تواجد البربر بالأندلس (٨).

(١) البيذق: أخبار المهدي ص٨٩.

(٢) نوارة شرقي: الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (٥٢٤-٦٦٧هـ/١١٢٦-١٢٦٧م) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ،٢٠٠٨، ص٣٠.

(٣) البونت بالإسبانية Alpuente : قرية من أعمال بلنسية وهي إمارة صغيرة دخلت معترك السياسة بعد الفتنة، بفضل جهود مؤسسها عبد الله بن القاسم، ثم خلفه ابنه محمد بن عبد الله الملقب بيمين الدولة، وينسبون إلى أسرة عربية من نسل عبد الملك بن قطن الفهري، (أنظر الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦، محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص٢٦٠-٢٦٢

(٤) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ٤٩٩-٥٠١؛ العذري، أحمد بن عمر بن أنس ابن الدلائي(ت٤٧٨هـ/ ١٠٨٦م): نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د. ط، ص٢٠-٢١٠ .

(٥) لطفي عبد البديع: الإسلام في اسبانيا، ص١٣٢؛ أبو مصطفى، كمال السيد: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر (٤٩٥ - ٧٤١هـ/٩٥٥-١١٠٢م)، الإسلامي، مركز الإسكندرية للكتاب، مطبعة الإشعاع، ص٢٣٦ -٢٣٧.

(٦) العذري: نصوص الأندلس، ص٥٥-٥٦.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب. قسم الموحدين. ص١٣٢.

(٨) موسى: النشاط الاقتصادي، ص ٨.

والواضح مما سبق أن توزيع البربر على تلك المناطق لم يكن عشوائيًّا وإنما الهدف منه السيطرة على جزء كبير من شرق الأندلس (١)، وخاصة من طرف المصامدة الذين شكلوا الأغلبية الساحقة (٢)، كما أن تثبيت وجودهم في هذه الجهة يثبت تكلب النصارى على أرض الأندلس مما جعل الموحدين يركزون تواجدهم في وجه الفتن والاضطرابات وهجمات العدو.

ومما لا شك فيه أن هجرات البربر إلى الأندلس قد اشتدت مع دخول المرابطين وزادت مع الموحدين، ولعل هذا النزوح الرسمي والشعبي المتواتر نحو الأندلس يفسر حدوث ضغط سكاني كبير، قد خلف نتائج كثيرة أحدثت تغييرًا في التركيبة البشرية، فضلًا عن تغير مواطن استقرار أهل الأندلس، فحلت محلها عناصر بربرية. حتى وان لم يستقروا في جماعات كبيرة في المدن الكبرى، إلا أنهم كانوا ينتشرون في المناطق الزراعية ويعملون في الفلاحة وظل هذا حالهم خلال عصر المرابطين ومن بعدهم الموحدين الذين كانوا في الأساس بربر ويمثلون أغلبية الجيش كما ذكر بوتشيش (٣) "حسبنا أنهم تعاطوا فلاحة الأرض في البوادي أو احترفوا الجندية والأعمال المهنية في المدن".

والخلاصة مما سبق إن البربر قد شكلوا كيانات سياسية وامتهنوا الفلاحة واتخذوا من المناطق الجبلية الوعرة مسكنًا لهم، وأتقنوا اللغة العربية وانصهروا في المجتمع الأندلسي انصهارًا تامًا ومن ثمة فقد لعب البربر دورًا مهمًا في حركة توجيه الحدث الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي في الأندلس، فقد نشروا الإسلام وكان للعرب أعوان وشاركوا في الحياة السياسية، لذلك نلاحظ أن هذا العنصر أتى بتراث وثقافة إلى بلد فتح حديثًا، فتمازجت الثقافات الأجنبية والمحلية لتصنع نموذجًا أندلسيًا جديدًا.

ج- الصقالبة:

والمقصود بالصقالبة شعوب أوربية، استوطنوا القسم الشرقي والأوسط من أوربا، البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقًا إلى البحر الأدرياتيكي غربًا(٤)، وهي ما كانت تسمى في تلك الفترة ببلغاريا العظمى، ويذكر ابن حوقل(٥) أنهم من ولد يافث بن حام، ويطلق

(١) وهذا عكس ما ذهب إليه بعض المؤرخين ومنهم أحمد أبو الفضل الذي ذكر "أن منطقة شرق الأندلس كانت أقل مناطق أسبانيا التي نزلها البربر، معللا ذلك بسبب سياسة الولاة العرب التي كانت تستهدف إنزالهم في المناطق الواعرة وإقصائهم عن المناطق الخصبة التي استأثرت بها القبائل العربية واقتصار وجود البربر على قبيلة نفزة التي نزلت بشاطبة، غير أن د/ حسين مؤنس يرى أن هذا الرأي غير صحيح على الاطلاق لان العرب تركوا لغيرهم مناطق سهلية كثيرة مثل أحواض نهر تاجة ونهر شقورة بمرسية ونهر شقر والوادي الابيض ببلنسية وغيرها وإن كنت أرى أنه يقصد بذلك فترة الحكم العرب للأندلس ما قبل حقبة الدراسة (انظر: حسين مؤنس: فجر الاندلس: ص٢٧٠-٢٧١، عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص١٢٢، أحمد أبو الفضل: شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص٢٣٤).

(٢) البيدق: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ص٣٠، علام، عبدالله علي: الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة،١٩٧١م، ص٢٢٤

(٣) بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٣٤

(٤) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٩٧

(٥) ابن حوقل، محمد البغدادي الموصلي (ت بعد٣٦٧هـ) صورة الأرض، جزءان، صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م، ج١ ص١١٠

عليهم في الأندلس، "الرقيق المجلوب" من البلاد السلافية وشمال إسبانيا، فكلمة صقلبي Slave فرنسية قديمة مرادفة للعبيد أو الرقيق(١) أيا كان جنسهم، ويبدو أنه المعنى الذي استعمل في الأندلس في وقت مبكر على الأجانب الذين يخدمون في البطانة وفي القصر، فكانت كلمة الصقالبة تطلق على الخصيان والأسرى الذين كان يأسرهم الجرمان والإسكندنافيون ويبيعونهم للأندلس، وغدت هذه التسمية تطلق بمرور الزمن على كل الأسرى والعبيد المجلوبين من الأمم المسيحية، حيث كان الصقالبة مزيجًا من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيون واللومبارديون والإيطاليو(٢) ثم عمم المصطلح على كل العصور وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية(٣)، وقال عنهم ابن منظور(٤) "جيل حمر الألوان، صهب الشعور، يتاخمون الخزر وبعض جبال الروم، وقيل للرجل الأحمر صقلاب تشبيها لهم".

وهؤلاء الصقالبة أطلقت عليهم المصادر التاريخية أسماء عديدة كالفتيان أو الخصيان وكانوا يجلبون أطفالًا، ويتعلمون اللغة العربية، ويدينون بالإسلام ويختلطون بالشعب الأندلسي ويعيشون الحياة الإسلامية، إذ كانوا يربون تربية عسكرية ويدربون على الخدمة في القصور، والانخراط في سلك الجندية ليكونوا جنودًا في الحرس والجيش(٥).

ورغم قلتهم كانت الصقالبة عنصرًا مهمًا من عناصر المجتمع، ولعبت دورًا سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا مهمًا، واستطاع بعضهم أن يكوِّن ثروة طائلة ويمتلك العبيد والإقطاعات، ومنهم من وصل إلى السياسة وأسس دولة كمجاهد العامري وزهير العامري، اللذين اتخذا شرق الأندلس مُلكًا لدولتهم (٦).

وقد استخدم الصقالبة خلال العصر المرابطي(٧)، كما سموا في تلك الفترة الروم والحشم والعلوج(٨) والفتيان، وقد استعملهم المرابطون في وظائف الدولة وفي الحرس الخاص ليوسف بن تاشفين، وذلك استنادًا إلى رواية صاحب الحلل الموشية القائل بشراء يوسف

(١) إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ٤٥

(٢) عنان، محمد عبد الله: تراجم شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، د.ت، مصر، د.ت، ص ١٩٢

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١١٠

(٤) ابن منظور(ت٧١١ه/١٩١١م)، لسان العرب، دار المعارف، النيل القاهرة، د ت، ص ٥٠

(٥) الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق د.ت، ص٢٠.

(٦) بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٦

(٧) الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. دار المعارف، مصر ١٩٦٠م، ص٤٠

(٨) اختلف الباحثون في أصل العلوج، فبعضهم يرى أنهم من المرتزقة الذين احترفوا الجندية في الممالك المسيحية شمال الأندلس، قلم يجدوا غضاضة في خدمة المرابطين كما خدموا ملوك الطوائف من قبل بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٦؛ بينما يرى بعضهم الاخر أنهم من الاسرى الذين تم أسرهم في معارك الاندلس (محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين ،٣٨٠، الجيوسي، سلمى الخضراء: الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٩٧٥ –٩٧٦؛ محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الادب العربي وفي الادب الاندلسي، ط١، منشورات دار أسامة، بيروت ١٤٠٤ه/١٩٨٤م،ص١٦

بن تاشفين من(١) " الأندلس.... جملة من العلوج ، فأركبهم، وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارسًا"، وفي بلاط الولاة بالأندلس كجباية الضرائب وفي الجيش عندما سعى علي بن يوسف بن تاشفين إلى تقوية جيشه والاستفادة من تقنياتهم العسكرية، خاصة وأنهم تدربوا على استخدام السلاح من الدروع والبيضات والسيوف(٢)، وقد أخلص بعض هؤلاء الروم للدولة المرابطية حتى إن الروبيرتير Rcverter قائدهم المشهور لقى حتفه وهو يقاتل الموحدين(٣)، بينما تمكنت الخيانة من نفوس بعضم، وأدت إلى فتح أبواب مراكش أمام الموحدين(٤). ومما سبق يتضح أن الصقالبة أو الروم على الرغم من قلة عددهم إلا أنهم أسهموا في نمو المجتمع المرابطي وتمكنوا من تبوء مراتب عالية في هرم السلطة والإدارة العسكرية.

وشكَّل أسرى الروم أو(الصقالبة) الذين استحوذ الموحدون عليهم، نتيجة الحروب والغزوات الكثيرة التي وجهت(٥) إلى بلادهم، فهي فئة لا يمكن تجاوزها في المجتمع الموحدي، وقد استفاد منهم كخدم بالإضافة إلى العمل بالجيش، ويبدو أن الوجود الصقلبي لم يكن واضحًا في المجتمع الأندلسي في العصر الموحدي، غير أن ثمة إشارات لعبد الواحد المراكشي تبين إن الحكام الموحدين قد قربوا الصقالبة إليهم سواء كان في الحاضرة مراكش أو في بلاد الأندلس، فقد أشار إلى وجود خصيان قد تولوا نصب الحجابة لحكام الأندلس وبرز من هؤلاء الصقالبة (الروم) من ارتقى إلى مناصب مهمة في الدولة منهم كافور الخصي، الذي كان أحد حجاب أبو يوسف يعقوب وعنبر الخصي، وريحان الخصي حاجبا لأبي يوسف يعقوب المنصور(٦) والقائد أبو الحسن علي بن الربرتير الذي استعان به الخليفة أبو يعقوب في قيادة بعض أساطيله، التي وجهها إلى إخضاع بني غانية حكام الجزائر الشرقية في أواخر حكمه(٧).

---

(١) مؤلف مجهول: قطعة من كتاب ابن جحاف والسيد ضمه المحقق ضمن البيان المغرب لابن عذاري، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣، ص٢٥.

(٢) أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عصري المربطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، الطابعة الثانية، القاهرة، ١٤١٧/١٩٩٦م، ص٤٧ بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٦– ٤٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص.٢٠

(٤) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٣٨، عبد المنعم حسين، حمدي: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص١١٥–١١٩.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٤٥؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص١٦٦؛ هوبكنز، النظم الإسلامية، ص ٥٦ –٥٧.

(٧)السلاوي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥م/ ١٨٩٢م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٣ أجزاء، ط ١، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧، ج ١، ص ٢٨٦؛ سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص ٣٤٩.

من خلال ما ورد يبدو أن الصقالبة كانوا ضمن العناصر التي قربتها السلطة، رغم كونهم شكلوا نسبة قليلة من مجموع العناصر التي استقرت في شرق الأندلس إلا أنهم شكلوا إحدى فئات المجتمع.

د- المُوَلَّدون والمسالمة:

وهم من العرب الذين تزوجوا من الاسبانيات، فنشأ نتيجة ذلك جيل هجين، آبائهم عرب، وعاشروا أهل البلاد وجاوروهم، إن هذا الجيل من آباء المسلمين عرف بالمُوَلَّدون (١) من ثمة فإن هذه الفئة هي نتاج المسلمين عربًا كانوا أو بربرا من نساء أسبانيات مسيحيات أو غيرهم، وهم في ذلك يختلفون عن الأسالمة أو المسالمة، (وهم أفراد من أصول إسبانية اعتنقوا الإسلام)، وهم عناصر من القوط، وأسبانية أسلمت مع الفتح أو بعده، ولكن كثير من الباحثين اختلط عليهم الأمر حتى اعدوا المسالمة مولدون(٢).

وفي فترة موضوع الدراسة نجد صعوبة كبيرة في التمييز بين المسالمة والمولدون، ومرد ذلك إلى الانصهار داخل المجتمع، وما من شك فيه أن فئة المولدين لعبت دورًا كبيرًا في حركة المجتمع الأندلسي، أما عن الأماكن التي تركز فيها المولدون فقد كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان في شرقي وجنوب الأندلس (٣)، حيث إن البعض منهم استقر في البادية، فاحترفوا مهنًا متواضعة كتربية الماشية وغراسة الأشجار وقطع الأخشاب (٤).

كما اتخذ بعضهم الأسماء العربية ليثبتوا أنهم قدموا العهد بالإسلام، ومنهم،Pascual من نسى أصله، ومنهم من ظل على نسبه القديم مثل بني بشكوال وهناك Gomès بني غومس، Garcia وبني غارسيه Martin بني مرتين من أضاف إلى اسمه العربي " أون "on" مثل زيد " زيدون"، حفص" حفصون"(٥).

---

(١) تختلف المصادر حول مفهوم مصطلح المولدين، حيث يرى السيد عبد العزيز سالم أنهم جيل جاء على إثر المصاهرة بين المسلمين و أهل البلاد، بينما الباحثة مريم قاسم طويل ترى أن المسالمة أي نصارى الأسبان أسلموا وتدينوا بالإسلام و ترفض أن يكون المولدون من نتاج زواج المسلمين بالإسبانيات أما القادري بوشيش فيجمع بين الرأيين، فيقول أنهم منحدرين من أصل أسباني اعتنقوا الإسلام أو ولدوا من أب مسلم ونشؤوا على الديانة الإسلامية و الاتجاه نفسه اتجه الباحث صلاح خالص وحسان حلاق (سالم: تاريخ المسلمين و آثارهم، ص ١٢٨ ، مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٤، ص ٢٤٦، بودشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٣، صلاح خالص: أشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية، دار الثقافة، د.ت، بيروت، ١٩٦٥، ص٣١ ؛ حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٢٧٢

(٢) سالم، سحر السيد عبد العزيز: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، دراسة سياسية أدبية) اجتماعية – الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى-، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط ١، الرباط، ١٩٩٥، ص ٤٨ محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس، =ص١٦. طه عبد المقصود عبد الحميد: موجز تاريخ الأندلس من الفتح إلى السقوط(٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م) مكتبة المهتدين الإسلامية، د-ت، ص٣٢.

(٣) طه عبد المقصود: موجز تاريخ الأندلس، ص٣٣.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩ ص ٢٥، بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٣-٤٤.

(٥) مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة، ص٢٤٦.

هذه الفئة حاولت القيام بثورات وتحقيق مكاسب، غير أنه سرعان ما خفت ثورات المولدين فيما بعد وتمكنوا من تأسيس إمارات في عصر ملوك الطوائف، إلا أن دخول المرابطين الأندلس أتى على معظم إماراتهم ولم يبق لهم إلا بعض الإمارات الثغرية كإمارة بني هود (١).

شكَّل المولدون نواة مهمة في المجتمع الأندلسي عامة، وكان لهم دور بارز في العصر الموحدي، وقد احتفظت بعض العائلات المولدية بأسمائها الأسبانية مثل بني قسي وبني مردنيش رغم إسلامهم إلا أن هذا لا يخفي حقيقة تعصبهم لأصلهم الأسباني، ويظهر ذلك في تحالفهم مع النصارى في العديد من المرات، ومع ميلهم إلى للانفصال عن السلطة وقيامهم بتمردات وثورات متعددة، مستغلين ضعف الدولة المرابطية.

لعب المولدون في العصر الموحدي دورًا كبيرًا في الحياة السياسية، وتمكنوا من إقامة دويلات مستقلة عن السلطة، فقد شهدت الفترة الأولى من الحكم الموحدي انطلاق ثورات موحدية قوية، لعب فيها الطموح الشخصي لهذه الفئة الدور البارز في ظهور تلك التمردات، مثل على ذلك ثورة أحمد بن قسي الذي كان يطمح لإقامة دولة مستقلة عندما أعلن ثورة المريدين في شلب ضد المرابطين في أواخر حكمهم للأندلس عام (٥٣٩هـ/١١٤٤م) (٢).

ويرجح أن تكون العصبية المولدية هي الدافع الرئيس الذي أنعش هذه التمردات وخاصة أنها اندلعت في المرحلة الأخيرة من العصر المرابطي نتيجة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة التي أدت إلى وقوع ثورات عديدة في الكثير من المدن الأندلسية فهي ثورات ذات طابع قومي (٣)" فالروح الوطنية والنزعة القومية مازالت تتأجج في أعماق النفوس في العدوة الأندلسية"(٤).

وأما ثورة ابن مردنيش الذي ملك شرق الأندلس وكان مناهضًا للحكم الموحدي، وثورة ابن همشك الذي تحالف مع النصارى ضد الموحدين، ما هي إلا دليل قاطع على مناهضة المولدين للسلطة منذ عصور سابقة ورغبتهم في الانفصال عنها، وتأسيس إمارة مستقلة لفترة زمنية طويلة، إلا أن نزعتهم المتأصلة للثورة كانت الرغبة منها إيجاد كيان مستقل داخل المجتمع الإسلامي، وهذا ما يبين عصبيتهم القومية وتحالفهم مع قوى

(١) بونتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٤.

(٢) السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص١١٧؛ أبو رميلة، هشام، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط١، دار الفرقان، عمان،١٩٨٤ م، ص٧٠.

(٣) بونتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص٤٤.

(٤) Cheikha, Jomaa, Silves (Shilb) Alongo de Historia Segundo as fonts Arabes Xarajib N٢،٢٠٠٢,p.٤٥

النصارى مما أسهم في انحلال وضعف سلطة الموحدين؛ وللأسف لم يقف المولدون ككتلة واحدة لمواجهة الأعداء النصارى بل تحالفوا معهم ضد الموحدين لإضعافهم وكانوا شوكة في جانبهم حتى سقوطها(١).

ه-أهل الذمة (٢):

عرفت هذه الفترة من العصور الوسطى مشادات وصراعات عنيفة بين المسلمين والنصارى كان سببها تكالب القوى المسيحية على المسلمين وأراضيهم، وهذا ما يترجمه النشاط الذي عرفته الحملات الصليبية في الشرق والغرب على السواء، ولهذا فقد كان إحساس العداء متبادلًا بينهما، كما كانت علاقتهما يشوبها الحذر والحيطة دائمًا، ومع ذلك وجدت أعداد كبيرة من النصارى واليهود في المجتمعات الإسلامية شرقًا وغربًا، وكذلك عاش المسلمون في بعض المناطق التي لا تدين بدينهم، وقد عرفت الطائفة النصرانية (المسيحية) واليهودية التي عاشت في كنف النظام الإسلامي بأهل الذمة(٣).

***(النصارى) أو المستعربون Los Mozarabos**

أطلق المسلمون على العناصر الأصيلة التي حافظت على دينه القديم مسمى نصارى، غير أنهم أطلقوا عليها -كذلك- مسميات أخرى من هذه المسميات (المستعرَبون، بفتح الراء) (٤).

وكان العرب يسمونهم بعجم الأندلس أو أهل الذمة، أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين (٥)، ومهما يكن من أمر فإن هذه الفئة شكلت جمهرة سكان البلاد في شرق الأندلس (٦)، واختلطوا بالمسلمين واتخذوا العربية لسانًا ونهجوا نهجهم وتزينوا بزيهم، وتسموا بأسمائهم، وحتى طقوسهم كانت مختلفة عن أبناء ملتهم، وتسموا بالطقوس المستعربة، كما أن بعضهم اعتنق الإسلام عن وعي وإدراك (٧)، وقد عومل هؤلاء

(١) أبو الفضل، محمد أحمد: شرق الأندلس في العصر الإسلامي (٥١٥- ٦٨٦هـ/١١٢١-١٢٨٧م)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ،١٩٩٦ م، ص٢٣٦.

(٢) وقد أطلق اسم أهل الذمة على غير المسلمين، والذمة تعني الضمان و الأمان الذي يكسبهم حقوق الرعايا ويلزمهم بواجبات أيضًا (بوتشيش: مباحث في التاريخ، ص١٤٠).

(٣) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر: أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، ط ١، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦١، ص ١٣٦.

(٤) هناك من يرفض هذه التسمية و يعتبرها خطأ كحسين مؤنس، حيث يقول: " أما لفظ مستعرب و جمعه مستعربون فلم يظهر في النصوص و الكتابات الرسمية إلا في زمن متأخر على خلاف ما يظن، و يبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على آخر نصارى الأندلس فقط" (انظر حسين مؤنس: فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ٧١١ م – ٧٥٦ م، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٥، ص١٢٥ -١٢٦ وهناك من يرى أن أصل الكلمة مشتق من أصل عربي لأن العرب عرفوا مصطلح مستعربة، و يقابله العرب البائدة، (انظر ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٤٩)، إلا أن هناك من يعارض ابن خلدون في ذلك (أنظر ميكيل دي إيبالزا: المستعربون- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس- مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، ج ١، ص٣٣٤؛ عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، مكتبة الجيزة العامة، ١٤١٤ه- ١٩٩٣م، ص٧٧. سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٣٠؛ لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا، ص٢٧).

(٥) سالم: المرجع السابق، ص١٣٠.

(٦) أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص٢٣٦.

(٧) مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس – أفاق إسلامية – دار العلم للملايين، ط ١، بيروت، ١٩٨٧م، ص٩٢-٩١.

المستعربين منذ الفتح معاملة طيبة اتسمت بالتسامح فتمتعوا بحرية كبيرة في ممارسة شعائرهم الدينية (١).

وقد تمتع المستعربون بكافة حقوقهم فكانوا يؤدون شعائرهم الدينية دون أن يتعرضوا لضغط من قبل الحكومة الإسلامية، فقد ترك العرب للجماعات النصرانية نظامها المدني الذي كان جاريا أيام القوط، وهو نظام مدني وإداري أيضًا يتصل بجميع أمور نصارى الذمة، فيقوم القائمون به بجمع ضرائبهم ويؤدونه إلى بيت المال نيابة عنهم(٢).

وقد توزع "المستعربون" بين الأرياف و المدن فقد ضمّت مدينة سرقسطة الأندلسية أعدادًا كبيرة منهم، وعرفت منطقة الثغر الأعلى بكونها ميدانًا خصبًا تلتقي فيه العناصر المسلمة والمسيحية، في جو يسوده التسامح المطلق، وكذلك طرطوشة ووشقة ولاردة،، ففي الأرياف هناك قرى كاملة يقطنها المستعربون، أما في المدن فكانوا يختلطون بباقي السكان، وفي بعض الأحيان كانت لهم أحياء خاصة مستقلة داخل المدينة أو خارجها، وقد سهل ذلك عملية تحصيل الجزية (٣)، خاصة المرية وغيرها من المدن، كما كانت لهم مدافن خاصة عند بوابات المدن(٤)، أما مجالات العمل التي دخلوها فهي مختلفة كالإدارة والحرس والجيش وصناعة الأسلحة وحفظ الذخائر والطب والملاحة والتجارة في مدن ساحل شرق الأندلس مثل المرية ودانية وطرطوشة مع القطلانيين والإيطاليين والغاليين(٥) غير أن عدد المستعربين أخذ في التناقص تدريجيًا بسبب ارتفاع عدد المسالمة، حتى صاروا أقلية وباعتناقهم الإسلام، ولكن هذا لا يمنع أن يكون لهذه الفئة دور بالغ الخطورة في شرق الأندلس فالنصارى كانوا يغتنمون كل الفرص لموالات بني جلدتهم من النصارى، ويبذلون قصارى جهدهم في مساعدة الملوك النصارى في محاولاتهم لغزو بلاد الأندلس، ومن أمثلة ذلك ففي بلنسية حيث إنهم وجدوا بها لما وقعت في يد السيد القنبيطور بالإضافة إلى ذلك أنهم كانوا سببًا في غزو ألفونسو المحارب ملك قشتالة وليون(ملك أرغون) للأندلس سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م حيث وعدوه بالانضمام إليه ونصرته في حال تلبيته لندائهم واختراقه لبلاد المسلمين بالأندلس وخاصة منطقة شرق الأندلس، ويظهر ذلك من خلال تلك الفتوى التي تقدم بها الفقيه ابن رشد للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين من أجل تغريبهم نحو بلاد المغرب وغيرها

(١) سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٣٠.

(٢) ليوبولد وتورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة إليو دورو دي لابينيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، السعودية، ٢٠٠٣م، ص ٢٩٧.

(٣) ليوبولد وتورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص ٢٩٦.

(٤) كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، ص١٠٣-١٠٤.

(٥) أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص٢٣٦.

من البلاد(١)، وكذلك ظهر أمر هؤلاء بوضوح لما سيطر ابن مردنيش على منطقة شرق الأندلس الذي كان أغلب اعتماده على النصارى.

وكذلك الجيش الموحدي كان يتزود بأسرى الحرب من النصارى، فقد أشار ابن السماك العاملي" عن وجود طائفة من النصارى ضمن الجيوش الموحدية (٢) وأنهم اختلطوا بالعرب والبربر فتأثروا بهم وأثروا فيهم، وظلوا يتمتعون طوال العهود الإسلامية بحرية واسعة في عقائدهم وشرائعهم وتقاليدهم مقابل جزية يدفعونها، حتى ظهرت دولة الموحدين، فلم يعد بعد ذلك الحال هو حالهم.

وقد عرف العصر الموحدي في الأندلس اشتداد هجمات النصارى المتكررة على العديد من المدن الأندلسية، ولذلك أخذ منهم الموحدين موقف متشدد، ويبدو ذلك من خلال إصدار الخليفة عبد المؤمن بن علي أوامر إلى جميع عمال الأندلس، بأن يخيروا بين اعتناق الإسلام أو الجلاء عن البلاد وضرب لذلك أجلًا معلومًا، ويذكر النويري رواية بنفس المعنى فيقول إنه ما أن حضرت الوفاة للخليفة عبد المؤمن ابن علي عام(٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) حتى لم يبق " مشرك في بلاده ولا كنيسة في بقعة منها؛ لأنه إذا ملك بلدًا إسلاميًا لم يترك ذميًا إلا عرض عليه الإسلام، فمن أسلم سلم، ومن طلب المضي إلى بلاد النصارى أذن له في ذلك، ومن أبى قتل، فجميع أهل مملكته مسلمون لا يخالطهم سواهم(٣)، وسار على سنته معظم أبنائه الذين تولوا الخلافة من بعده، فلم تنعقد ذمة لنصراني منذ قيام دولة المصامدة(٤)، ولا ريب أن هذه السياسة قد دفعت هذه العناصر للعمل على تقويض أركان الدولة الموحدية(٥).

ورغم كل هذا فإن المستعربين عنصر فعال في الحياة الأندلسية يعدون من أهم العناصر الأساسية في المجتمع الأندلسي التي عملت على نقل حضارة وثقافة الأندلس إلى إسبانيا، وكان يمارسون أشغالًا علمية وعملية مختلفة، ربما أهلت بعضهم ليصبحوا من ذوي النفوذ (٦).

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ص١٠٩.

(٢) ابن السماك العاملي، محمد بن أبي العلاء محمد بن محمد (ت٨١٣هـ/ ١٤٠٩م): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م، ص٢٢٢.

(٣) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨٣م، ج ٢٤، ص ٣٢١.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٢٤.

(٥) موسى، عز الدين عمر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٠٥.

(٦) لطفي عبد البديع: الإسلام في أسبانيا، ص٣٠ عباس الجراري: أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإبداع، مجلة عالم الفكر، مطبعة الكويت، الكويت، مج ١٢، ع ١، أبريل، يونيو ١٩٨١م، ص١٧.

وخلاصة القول إن التركيبة السكانية هذه هي أهم التركيبات العرقية التي ميزت تشكيلة المجتمع الأندلسي، وقد أعطت باختلاف أصولها وأديانها للمجتمع صفات خاصة قلما نجدها في مجتمع آخر في عصر عرف تدفق هجرات سكانية كثيفة ومستمرة مما يحتم على السلطة أن تبذل جهودًا لضبط الأمور وتحقيق الانسجام والتوفيق الذي يقتضيه الوضع خاصة وأنه يشكل خليطًا عجيبًا من الأجناس والعصبيات مما ساعد على تنوع عناصر المجتمع.

بذلك ضمّ المجتمع الأندلسي مزيجًا من العناصر البشرية والتي شكلت اللبنة الأساسة في تكوينه، فنجد فيه تمازج عرقي واضح شمل جميع المدن الأندلسية ولا سيما شرق الأندلس.

ومهما يكن من أمر فإن هذه العناصر قد أسهمت في إثراء الحركية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشرق الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، خاصة أمام التنوع المعرفي والديني الذي تحمله هذه العناصر.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي زرع، علي الفاسي (ت في منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

٢. ابن الآبار: الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.

٣. ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ه/ ١٢٥٩م): التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م.

٤. ابن السماك العاملي، محمد بن أبي العلاء محمد بن محمد (ت٨١٣ه/ ١٤٠٩م): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: عبد القادر بوبايه، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م.

٥. ابن القطان، أبو علي الحسن بن علي:(ت منتصف القرن السابع الهجري): نظم الجمان ترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، القاهرة،١٩٩٠م.

٦. ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م.

٧. ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود (ت ٥٧٨ه/ ١١٨٣م): الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة– بيروت، دار الكتاب المصري– دار الكتاب اللبناني،١٤١٠ه/ ١٩٨٩م.

٨. ابن حزم، محمد علي بن سعيد(ت٤٦٥هـ): جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة.

٩. ابن حوقل، محمد البغدادي الموصلي (ت بعد٣٦٧هـ) صورة الأرض، صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م.

١٠. ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، موسى، عز الدين عمر: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى، دار الشروق، بيروت– القاهرة، ١٩٨٣م.

١١. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٥ م.
١٢. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر: أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، الطبعة الأولى، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦١م.
١٣. ابن منظور(ت٢١١هـ/١٩١١م)، لسان العرب، دار المعارف، النيل القاهرة، د ت.
١٤. أبو الفضل، محمد أحمد: شرق الأندلس في العصر الإسلامي (٥١٥- ٦٨٦هـ/١١٢١-١٢٨٧م)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٦ م.
١٥. أحمد، علي: اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، مجلة دراسات تاريخية ع ٥٧ -٥٨، السنة السابعة عشر، أيلول- كانون أول ١٩٩٦م.
١٦. أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عصري المربطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، الطابعة الثانية، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
١٧. باشا، ضياء، الأندلس الذاهبة، تعريب: عبد الرحمن ارشيدات، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ج ٣، ١٩٨٩ م.
١٨. بوبايه، عبد القادر: البربر في الأندلس وفتنة القرن الخامس الهجري (٩٢-٤٢٢هـ/٧١١-١٠٣١م)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١م.
١٩. البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن٦هـ/ ١٢م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوارقة، الرباط، ١٩٧١م.